شرح قصيدة قال السماء كئيبة وتجهما

تُعدّ قصيدة قال السماء كئيبة وتجهما من بين أجمل القصائد التي كتبها الشاعر إيليا أبو ماضي في حياته، هي قصيدة مكتوبة على البحر الكامل، جاءت في واحد وعشرين بيتًا، وشرحها فيما سيأتي:

- **قالَ: السَماءُ كَئيبَةٌ وَتَجَهَّما / / / قُلتُ: اِبتَسِم يَكفي التَجَهّمُ في السَما**
  قالَ: الصِبا وَلّى، فَقُلتُ لَهُ: اِبتَسِم / / / لَن يُرجِعَ الأَسَفُ الصِبا المُتَصَرِّما

يتحدث الشاعر عن صديقه البائس المتشائم الذي يحاوره فيقول له: السماء كئيبة، فأجابه الشاعر: ابتسم ويكفيك هذا العبوس والتجهم الطويل، فيرد هذا الصديق: ولّت أيام الشباب وذهبت إلى غير عودة، فيجيبه الشاعر: ابتسم فإنّ الأسف والحزن والعبوس والتجهم لن تنفع في إرجاع الصبا وأيام الشباب التي انصرمت ومضى عليها الزمان.

- **قالَ: الَّتي كانَت سَمائِيَ في الهَوى / / / صارَت لِنَفسِيَ في الغَرامِ جَهَنَّما**
  خانَت عُهودي بَعدَما مَلَّكتُها / / / قَلبي، فَكَيفَ أُطيقُ أَن أَتَبَسَّما؟

يعاود هذا الصديق المفترض فيقول: إنّ الحبيبة التي أهواها والتي كانت سماءً وجنة لي صارت جهنمًا علي، فقد خانتني وخانت عهود الحب التي قطعناها لبعضنا بعد أن منحتها قلبي كله، فكيف تريد مني أن أحسن الابتسام في هذه الظروف القاسية التي أعيشها.

- **قُلتُ: اِبتَسِم وَاِطرَب فَلَو قارَنتَها / / / قَضَّيتَ عُمرَكَ كُلَّهُ مُتَأَلِّما**
  قُلتُ: اِبتَسِم ما أَنتَ جالِبَ دائِها / / / وَشِفائِها فَإِذا اِبتَسَمتَ فَرُبَّما
  أَيَكونُ غَيرُكَ مُجرِماً وَتَبيتُ في / / / وَجَلٍ كَأَنَّكَ أَنتَ صِرتَ المُجرِما

يعود الشاعر ويخاطب هذا الصديق المفترض فيقول له: ابتسم فلو أردت أن تحسب الأمور في هذه الحياة على هذه الشاكلة سوف تبقى متألمًا طول حياتك، ثم قال: ابتسم واطرب وافرح فلست أنت الذي تجلب الداء ولا الشفاء، ولا تحمل نفس وزر نفس أخرى في هذه الحياة، ابتسم واترك الأمور تجري كما شاءت لها المقادير.

- **قالَ: العِدى حَولي عَلَت صَيحاتُهُم / / / أَأُسَرُّ وَالأَعداءُ حَولِيَ في الحِمى؟**
  قُلتُ: اِبتَسِم لَم يَطلُبوكَ بِذَمِّهِم / / / لَو لَم تَكُن مِنهُم أَجَلَّ وَأَعظَما
  قالَ: المَواسِمُ قَد بَدَت أَعلامُها / / / وَتَعَرَّضَت لي في المَلابِسِ وَالدُمى
  وَعَلَيَّ لِلأَحبابِ فَرضٌ لازِمٌ / / / لَكِنَّ كَفّي لَيسَ تَملُكُ دِرهَما
  قُلتُ: اِبتَسِم يَكفيكَ أَنَّكَ لَم تَزَل / / / حَيّاً وَلَستَ مِنَ الأَحِبَّةِ مُعدَما

يتابع الشاعر في هذه الأبيات وصف الحوار الذي دار بينه وبين هذا الصديق المفترض فيقول على لسان الشخص المفترض: إنّ الأعداء حولي يصرخون ويتوعدون، فكيف أفرح والأعداء حولي وبالقرب مني، فقال له الشاعر: ابتسم فهم لا يطلبون إلّا الأعظم منهم، ولو لم تكن متوفقًا عليهم في كل أمر لما طلبوك ولما حاربوك في الأصل.

ثم قال هذا الشخص المتفرض: لقد جاء وقت المواسم وعلي الكثير من الواجبات والكثير من المسؤوليات التي يجب أن أقضيها ولكنني لست أملك درهمًا واحدًا، فيرد عليه الشاعر: ابتسم وافرح وتذكر أنك لم تزل على قيد الحياة تغني للحياة والفرح، وما زال الأحبة حولك يفرحون ويبثون لك الحب والسلام.

- **قالَ: اللَيالي جَرَّعَتني عَلقَما / / / قُلتُ: اِبتَسِم وَلَئِن جَرَعتَ العَلقَما**
  فَلَعَلَّ غَيرَكَ إِن رَآكَ مُرَنَّما / / / طَرَحَ الكَآبَةَ جانِباً وَتَرَنَّما
  أَتُراكَ تَغنَمُ بِالتَبَرُّمِ دِرهَما / / / أَم أَنتَ تَخسَرُ بِالبَشاشَةِ مَغنَما

ثم يقول هذا الشخص: إنني تجرعت من ليالي المر والعلقم، فيرد عليه الشاعر: ابتسم حتّى لو جرعت المر والعلقم، فابتسامك قد يكون سببًا في ابتسام الآخرين، ولعلّ أحدًا من الناس كان يعاني من الحزن فلمّا رآك مبتسمًا ألقى الكآبة جانبًا وقرر الابتسام معك والترنم وإظهار السعادة، ثم يتساءل الشاعر: هل يخسر الإنسان بالفرح شيئا عظيمًا أم هل يغنم الإنسان بالتشاؤم درهمًا واحدًا؟

- **يا صاحِ لا خَطَرٌ عَلى شَفَتَيكَ أَن / / / تَتَلَثَّما وَالوَجهِ أَن يَتَحَطَّما**
فَاِضحَكَ فَإِنَّ الشُهبَ تَضحَكُ وَالدُجى / / / مُتَلاطِمٌ وَلِذا نُحِبُّ الأَنجُما
قالَ: البَشاشَةُ لَيسَ تُسعِدُ كائِناً / / / يَأتي إِلى الدُنيا وَيَذهَبُ مُرغَما
قُلتُ: اِبتَسِم ما دامَ بَينَكَ وَالرَدى / / / شِبرٌ فَإِنَّكَ بَعدُ لَن تَتَبَسَّما

يخاطب الشاعر إيليا أبو ماضي في هذه الأبيات صديقه المفترض؛ فيقول: يا صديقي ليس هناك أي خطر على شفتيك ولا على وجه وعلى حياتك إن ضحكت وابتسمت، فاضحك وابتسم فإن الشهاب عندما يهوي في السماء يظهر ويضحك في عتمة الليل، ولولا الليل لم نحب النجوم.

ثم يقول هذا الصديق المفترض: إن البشاشة أو الفرح أو السرور لا يمكن أن تسعد إنسانًا يجيء إلى هذه الدنيا ويذهب منه على الرّغم منه ومن دون اختياره؛ فقال له الشاعر: ابتسم واضحك، فما دام ما بينك وبين الردى شبر واحد، فابتسم واغتنم هذه المسافة، فإنك إذا حل بك الردى لن تتمكن من الابتسام.